الصورة التي تمنحها الصحافة العالمية لألفرد نوبل صاحب أكبر جائزة سلام في العالم هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. بل هي صورة رومانتيكية بالكامل، وقد أصبحت أقرب للأسطورة (legend) بفعل عوامل سياسية وثقافية عديدة، فهل هو عالم متبتّل، منقطع إلى مختبراته العلمية وأبحاثه المتعددة؟

هل اخترع مادة متفجرة (تي أن تي) لشق الطرقات في الجبال الحجرية الوعرة، غير أن هذه المادة القاتلة استخدمت من قبل الحكومات الرأسمالية لإدارة المعارك والحروب، ولاستعباد آسيا وأفريقيا والسيطرة عليهما إبان الحروب الاستعمارية الكبرى؟

ثم اعتزل الحياة، وقرر أن يمنح جائزة كبيرة لصناع السلام في كل أنحاء العالم، إيماناً منه بالسلام وتكفيراً عن خطيئته اللامقصودة باختراع البارود؟!!

هذه القصة غير صحيحة بالمرة. إن الصورة الحقيقية لألفرد نوبل هي أنه ابن تاجر سلاح، شخص مغامر، ابتكر مادة النيتروغليسيرين وذلك بمعاملة مادة الغليسرين النقية بحامض الكبريت، فنتج عن هذا المحلول قوة تفجيرية كبيرة، بعدها أنشأ مختبرات عديدة في هالنبورغ وروسيا ومناطق أخرى في العالم لصناعة مادة الديناميت، ثم انهالت الثروات عليه من كل جهة. فالمادة التي اخترعها غيرت وجه العصر الذي كان يحيا فيه برمته، فبعد مخترعات نوبل صارت الحروب تشن في كل مكان في أوربا، وكانت الجيوش الاستعمارية تحتاج إلى مادة الديناميت لحسم معاركها، وكان التجار والرأسماليون يحاولون السيطرة على العالم بفتح أسواق جديدة، وكانوا بحاجة إلى هذه المادة لشق الطرق الجبلية الوعرة وفتح القنوات المائية مثل السويس وبنما والدانوب.

أي من الناحية العملية، مكّنت مخترعات نوبل الغرب من التوسع بشكل خيالي، كما أنها خلقت نزاعات في أوربا لا حصر لها، ومن بين هذه وتلك، كان ألفرد نوبل يثرى بصورة غير مسبوقة، لقد أصبحت لديه معامل للأسلحة في كل مكان، بل امتلك خلال فترة قصيرة أكثر من ثمانين معملاً، ولم تعد استوكهولم هي ميدان عمله فقط، بل أخذ يفكر في مناطق أخرى من العالم، ومن الناحية العملية فقد انتقل هو للعيش في فرنسا، وطوّر أبحاثه من هناك بصناعة الديناميت اللاستيكي والجيلاتيني، وطور القوة البلستية الدافعة التي صنعت منها فيما بعد الصواريخ. وكان ينتج كل عام أطناناً مهولة من الديناميت، وقد أسهمت المادة الجديدة بتغيير الوضع السياسي والعسكري الستراتيجي في العالم.

أما جائزة نوبل فقد خلقتها الصدفة، ففكرة ألفرد نوبل عن السلام ودعم السلم الأهلي بين المواطنين ليست هي الفكرة الشائعة عنه، ذلك بكراهية ثقافة الأسلحة، أو وقف التسلح ونهاية الحروب في العالم عن طريقة نشر ثقافة السلام، إنما كان ألفرد نوبل يعتقد أن ثقافة السلام غير قادرة على فرض السلام، بل الأسلحة هي الوحيدة القادرة على إنهاء الحروب في العالم، إذن هو لا يدعو إلى سقوط الأسلحة، إنما يدعو إلى التسلح بقوة، وكان يعتقد أن حماية السلام لا تتم إلا برعب الأسلحة، ودعا الدول الكبرى الأوربية إلى أن تجهز بوسائل كفيلة بردع البلد الذي يبدأ النزاع، وكان يعتقد أن معامله التي تصنع الأسلحة هي التي ستضع حداً للحروب وليس البرلمانات الشعبية، ففي اليوم الذي يمكن فيه لجيشين أن يحوزا على ما يبيد فيه كل منهما الآخر في ظرف ثانية، فإن جميع الأمم المتحضرة ستتراجع أمام هذا الرعب الهائل، وتسرّح جيوشها.

هذه هي فكرة نوبل عن السلام، وفي الواقع أنه كان يتعرّض إلى حملة شعواء من قبل كتاب اليسار في أوربا، وتحميله مسؤولية هذه الحروب، وما ستنتج من حروب في المستقبل، وكان يدافع عن نفسه بكل وسيلة، غير أن فكرة الحروب والدمار والتخريب كانت ملتصقة بقوة بسمعته، فمن أين جاءته فكرة استحداث جائزة للسلام، سميت بجائزة نوبل للسلام؟

كانت أموال نوبل مهولة، غير أنه لم يكن متزوجاً، فقد قضى حياته عازباً، وكانت له علاقات نسائية متعددة ولكنها سرية وكتومة، ومن الواضح أنه لم يكن يثق بالنساء مطلقاً، أما أشقاؤه المقيمون في بطرسبورغ فقد كانت علاقته بهم سيئة للغاية، فقد قتل إميل شقيقه الأصغر في المختبر، وأسس مع الآخرين شركة نفط باكو، وكانت هذه الشركة التي تنقل نفطها عبر صهاريج نهر الفولغا تدر عليه كمية كبيرة من المال، إلا أنه كان يعتقد أن أرباحها أكثر، وكان يعتقد أن أشقاءه الصغار ينتظرون وفاته ليستولوا عليها، وفي الوقت ذاته كان هو عدواً لنقل الثروات بالوراثة، فقد كان يعتقد أن هذه الأموال سوف تذهب على الأغلب إلى أناس عاجزين، ولا تحمل لهم إلا المصائب، كما أن الوراثة تخلق الكسل وتفسد النفوس وتبعث الناس إلى البطالة.

وفي الوقت الذي كانت سمعته تتعرض فيه للتجريح، وتتعرض إلى حملات عنيفة من قبل دعاة السلام، وما كانوا يتهمونه به، ويتهمون معامل متفجراته بما تسببه من حروب المستقبل ومن دمار أدار نوبل ظهر المجن لأعدائه، فقد

نوبل: جائزة من الـ "تي أن تي"

كتب وصية مثيرة ومهمة جداً، فتحت من قبل محامين كبار في ستوكهولم في 30 كانون أول من العام 1869 أي بعد وفاته، حيث أوصى بجميع أملاكه وثرواته القابلة للتحقيق التي تركها بعد موته كرأسمال لجائزة للسلام، تقدم لأولئك الذين يقدمون حسنات كبيرة للإنسانية، في مجال الفيزياء والكيمياء والطب والأدب والسياسة.

لكن الجائزة الأشهر هي جائزة نوبل للآداب، لأن حجم المنافسة العلنية كبيرة، غير أن الكثيرين يعتقدون أنها تمنح لأفضل أديب أو كاتب في العالم، ولكن الحقيقة التي أصر عليها نوبل في وصيته هي أن تمنح الجائزة لكاتب بذل جهداً في خدمة الإنسانية أدبياً لكنه لم ينل حظاً وافراً من الشهرة. وهكذا نستغرب كل عام لأنها تمنح أحياناً لكتاب ليسوا هم الأفضل ولا الأكثر شهرة عالميا.

الكاتب: علي بدر